الحضارة الإنسانية بين التصور الديني وواقع العولمة

الدكتور محمد زعراط
عميد كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة السانيا وهران

لقد ظلت الحضارة الإنسانية تتواصل منذ فجر التاريخ بوسائل التداول وبفكر إنساني تلاحقت فيه النظريات والمبادئ منها ما يمت إلى أصول الدين والشريعة، ومنها ما يتصل بالقوانين الوضعية ولكي يخطو الإنسان نحو لمستقبل لا بد أن يفيد من ماضيه الحافل ويستشرق بواقعه بما يفرزه من تحولات : اقتصادية، تشريعية، إعلامية، وعلمية وقبل هذا وذاك يمكن من المنهجية العلمية أن نحدد المفهوم المصطلحي للحضارة سواء على صعيد اللغة أو على مستوى الاصطلاح العلمي:

أولا في اللغة العربية: لقد جاء في المعجم الوسيط أن لفظ: الحضارة يقصد بها الإقامة في الحضر. وأن معالم الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي هي في الحضر[1].وفي تاج العروس " الحضارة" والحضرة والحضر: هي المدن والقرى والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[2]

ثانيا في اللغة الأجنبية: أما في اللغة الأجنبية. فلفظ الحضارة civilisation مشتق من كلمة civtas في اللاتينية وتعني المدينة أو من civils بمعنى مساكن المدينة أو من civilis بمعنى مدن أو ما يتصل بالتجمعات السكنية ولما كانت كلمة الثقافة culture مرادفة لمعنى الحضارة فقد اختلف معنى الثقافة وتطور مع تطور المجتمعات الإنسانية، فالكلمة من حيث الاشتقاق مأخوذة من اللاتينية، ويراد بها إصلاح الشيء وتهذيبه لذلك قالوا Agriculture وهو إصلاح الأرض وزراعتها وبهذا تكون الثقافة تهذيب العقل. ومن ثم فإن لفظ culture يفيد طريقة شعب في منهج الحياة[3]

ثالثا في الاصطلاح:

إن أول ما يهمنا في هذا الأمر : ضرورة الإشارة إلى أن كلمة " حضارة" لم تكن متداولة عند العرب ولفترة زمنية طويلة .أعقبت الفتوحات الإسلامية باستثناء" ابن خلدون" الذي عبر عن المعنى في مقدمته باستخدام مصطلح العمران البشري المرادف لمعنى الحضارة.[4]

ومما لا شك فيه أن الحضارة من أهم مجالات الدراسة التاريخية فقد جعل الإنجليزي " توينبي" الحضارة محور الدراسات التاريخية و ذ لك في موسوعته التاريخية دراسة التاريخ (stydy of history)

وهكذا عرف البعض الحضارة على أساس الفرضية بأن الإنسان الأول لم يكن يتمتع بالعقل والتميز المنطقي. فكان صورة أخرى من الحيوانات التي تعيش على وجه الأرض ثم استطاع نتيجة تراكم المعلومات التي يكتسبها بفضل ممارسته لحياته اليومية أن يعيد تشكيل بعض القدرات العقلية والمنطقية التي ساعدته على الخروج من هذه الصورة الحيوانية التي تعيش وبغرائزها فقط إلى صورة جديدة قادرة على التفكير والتدبير واكتساب المعارف المختلفة. وإن العقل والتميز المنطقي لم يكونا من مكونات الإنسان الأول مثل باقي المكونات الأخرى للجسم البشري وإنما اكتسبها الإنسان بالممارسة البطيئة التي استمرت قرونا عديدة مثل أي شيء آخر يكتسبه الإنسان دون أن يكون من مكونات الطبيعة. ينبغي أن يعتبر جزءا من حضارته لقد ترتب على هذا الاتجاه نحو اعتبار الصفات الحضارية صفات يكتسبها الإنسان عن طريق التربية والتعليم أن امتزج مفهوم الحضارة بمفهوم الثقافة إلى حد تصعب التفرقة بينهما. فالحضارة هي النتاج المتراكم للإنسان عبر مراحل حياته وكل تمدن بشري يستفيد من الموروث العلمي السابق.

فقد استفاد المسلمون من الحضارات البائدة التي سبقت الإسلام أو تلك التي عاصرها . فاحتضنوا تراثها على الرغم من التباين في أنماط التفكير وتعارض نظرياته مع عقيدة الإسلام والتصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة إن ما يميز التفاعل الحضاري بين الأمم وجود عاملين اثنين:

الشعور بالانتماء لكوكب واحد . والشعور بالانتماء لإنسانية واحدة

فالإنسان المعاصر يواجه اليوم تحديات عميقة تؤسس خارج رغبته وبجسور قائمة على الإكراه لا على الحوار والتفاهم . فيما اصطلح عليه بالعولمة التي تخلق

نظاما معرفيا واحدا تخضع له الإنسانية قاطبة وهي بإمكانيها أن توحد نظاما اقتصاديا وسياسيا لكن لا يمكنها أن تخلق الإنسان النموذج لأنها تخالف السنة الكونية في الاختلاف فيما يخص الكائن البشري فلا توجد حضارة فوق الأرض كرمت الإنسان كما نجدها في حضارة الإسلام من خلال آيات الاستخلاف والتعمير إذ أن مفهوم العولمة كما عبر عنه أحد الباحثين بقوله" لا تحمل ..أي هوية ثقافية.

ومن ثم فهي لا تنطوي على عقيدة أو فلسفة أخلاقية أو أي بدائل توازي هويتنا الثقافية أو تتفاعل معها، بل على العكس من ذلك تهمش كل ثقافة ذات طابع إنساني أو أخلاقي . وهذا ما يجعل من مواجهتنا للعولمة مواجهة معقدة، بحيث لا نقف معها على أرض مشتركة، لأنها تنفي ما نثبته وتثبت ما ننفيه"[5]

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الشعوب الإسلامية لم يترك لها المجال حتى التعبير عن رغبتها تجاه مسألة العولمة وهي زخم من المسائل التي يتخبط فيها العالم الإسلامي اليوم مثل حقوق الإنسان والديمقراطية وحرية التعبير وبهذا الشكل فإن العولمة في الصفة الأخرى (العالم الإسلامي) ينظر إليها كونها لم تتعدى واقع القضية الاقتصادية الجديدة لاستنزاف ثرواتها من جديد ووضعها في تبعية مطلقة من الوجهة المادية على وجه الخصوص .

فالعولمة كما يبرز بعض جوانبها الدكتور الخضيري هي مفهوم مراوغ فالعولمة سرد طبيعة برعية الكيانات الكبرى في التوسع والسيطرة او الهيمنة وإملاء الإدارة وسيط النفوذ ويتم ذلك بواسطة جوانب عديدة منها :

حرية حركة السلع وتبادلها دون حوافز

تحول العالم على قرية صغيرة بفعل التدفق التكنولوجي

ظهور الشركات متعددة الخدمات ..... وسط تعوذها وهيمنتها

ظهور فكرة حماية الأقليات .

التدخل في شؤون الدول بزعم إحلال الديمقراطية"[6] .

من هذا المنطلق يتحدد موقف العالم الإسلامي في تعامله الروحي والمادي على السواء .

فالمسلم يستمد قوته ودعمه لوجوده من شريعة السمحاءهذا بعد إيمانه المطلق بالله وخالق الكون ورسله وملائكته واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وهذا

يجد العالم الاسلامي نفسه في مفترق الطرق فيطرح السؤال عليه ما هو المصير حين يتجسد ايمانا بقوله تعالى :" ولا تموتن إلا وانتم مسلمون ".[7]

وبعد هذا تأتي الأمور العملية التطبيقية في كيان المسلم التي فصلتها شريعتنا السمحاء والتي توسع فيها علماء الشريعة باجتهاداتهم على مدى قمنة عشر قرنا وبما تحمله عبادات ومعاملات وحدود وحلال وحرام .

الهداية لقوله تعالى :" لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدمت صوامع وبيع صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ".[8]

ولعل اقرب تصوير للمسلم اليوم ما قاله مالك بن نبي رحمه الله :" لم يكن المسلم عندما فتح عينيه في عالم الاقتصاد بعد ان نالته الصدمة الاستعمارية سوى قن يسخر لكل عمل يريده الاستعمار فينتج المطاط في قول ل الهند الطينية (فيتنام) والفول السوداني في افريقية الاستوائية والارز في بورما والتوابل والكاكو في جاوة (اندونسيا والخمور في الشمال الافريقي .....) "[9]

فالتنوع والاختلاف من سمات الكائن البشري ما استمرت الحياة الانسانية فوق الارض فالحوار المنشود بين العالمين العربي والاسلامي يخضع لاليات وثقافات وشروط ينتظم بها كل مجتمع من المجتمعين المذكورين وذلك راجع فيما هو متفق عليه بين المختصين لعوامل منها :

الارث التاريخي المثقل بالسماء في العلاقة بين العالمي الاسلامي والمسيحي الغربين .

اثر الدراسات الاستشراقية في تشكيل العطلنة الغربية سلبا في اغلبها تجاه العالم الاسلامي لتشويه صورته خدمة لاغراضهم .

ضعف ثقافة الحوار في العالم الإسلامي نظرا لنقص الحريات فيه خلال لما هو سائد في العالم المتقدم اليوم .

ظهور أفكار التعصب في العالمي الإسلامي والغربي.

مما يعيق ثقافة السلم والحوار الذي يدعو اليه الراشدين في كل المجتمعات

وهكذا فلا يوجد حد اقصى وحد أدنى للحضارة فحضارة كل عهد هي اعلى و اقوى نسبة لحضارة عهد بائد وهي اقصر أدنى بالنسبة لعهد جديد مقبل ان الحضارات السابقة هي ملك للبشرية بأكملها فاذا نظرنا اليوم في أعماق العصور التاريخية السحقية تبين لنا ان القبائل التي عاشت في شبه الجزيرة العربية قبل

الاسلام قد اضطرت إلى جمع اوثان كل قبيلة في الكعبة ويذكر في هذا السياق حضارة ايران وشاهدها عقيدة المجوسية وهنا نشير إلى عاملين اثنين : الدين هو الموحد الوحيد لافراد المجتمع، والدين عامل مؤثر يدفع الناس إلى قبول القواعد من حيث العقيدة والتفكر والحركة ويقودهم إلى القيم المشتركة

فإذا ما استقر أنا مفهوم الحضارة ودور العامل الديني فيها نجد أم مصطلح الحضارة في الكتابات الغربية يعود حسب الموسوعة الفلسفية لى النصف الثاني من القرن الثامن عشر وقد شاع في الغرب مفهومان للحضارة احدهما علمي يرى ام مفهوم الحضارة لا ينحصر في جماعة دون اخرى وان لكل جماعة سكانية ..... حضارتها الخاصة والاخر مفهوم برجماتي قائم على الفصل العنصري [10]

فاذا تحدثنا عن النظريات الغربية في الحضارة انما نشير إلى عصر التنوير وإلى عصرنا الحالي وهي مرحلة فكرية ساد فيها الفكر الوضعي بشكل عام ومن مرتكزاته الغاء دور الدين في انماء المجتمع الانساني .

المرحلة الوضعية: لم تبدأ الفلسفة الوضعية القائمة على تقديس العقل والارتباط بالتجربة بأوجيست كونت كما هو متعارف عليه بل كانت الخزانة الفلسفية الغربية منذ عصر التنوير حبلى بهذه الفلسفة حتى أن ايما نويل كانط وهو الفيلسوف المثالي حول التنظير للفكر التجربي الوضعي الذي يجد مثله الأعلى في اسحق نيوتن وفلسفته التجريبية فجاء كونت وساعد على ولادة مذهبه الوضعي و أسس فلسفة في كتبه الاربعة محاضرات في الفلسفة الوضعية 1883-1842 والمقال في العقل الوضعي 1844 وطقوس العقيدة الوضعية182 ونظام السياسية الوصفية 1852-185.

يمتك مصطلح الوضعية ليشمل فلسفات اخرى لا ترتبط بشكل مباشر بالفلسفة الكونتية ولكنها تتفق معها في الاعتقاد بان اليقين لا تقدمه الا العلوم التجريبية وان العقل الإنساني لا يستطيع ان يتجنب الخطأ سواء في مختلف الميادين [11]

فوضعية كونت تقوم على القول بعجز الفكر عن ادراك ما يفوق المعطى الحسي فمهمة العقل إدراك ما بين الوقائع المحسوسة من علاقات أو قوانين و لا يتحقق اليقين في نظره الا في العلوم التجريبية و بهذا ينزع كونت عن الدين كل أصالة ويحوله الى نشاط دنيوي ويكتب قائلا " كل منا عندما يتامل تاريخه الخاص إلا يتذكر انه كان بالتتابع لا هوتيا في طفولة ميتافيزيقيا ف شبابه وفيزيقيا في

كينونته ... هكذا يولد الدين عند كونت ويسميه اللاهوت فالمنطق الذي يقضي بحتمية وجوده في بدء المعرفة يقضي ايضا بزواله في نهايتها لصالح المعرفة الوضعية وحدها [12].

لقد وجدت الفلسفة الوضعية نفسها مضطرة الى إعادة البعد الديني في شكل كنسية وكهونت من رجال العلم الوضعيين ويصف أحد الناقدين للوضعية قائلا :" أن مصير الوضعية كان هو مصير الفيثاغورسية قديما حيث انها وصلت إلى النقطة التي تلتقي فيها مع الغزيرة الوثنية والتي تعيد تقديس ما كان مرفوضا من قبل حتى أن " كونت " لم يتورع عن القول: ان المحبة الكونية كما صاغتها الكاثوليكية اكثر أهمية من قطنة العقل وانتهى الى استنكار البحث عن الحقيقة الفعلية فقال :" مهما كان من امرلا السعادة الناجمة عن استكشاف الحقيقة العلمية فهي لا تصل في أهميتها إلى ان تكون هي الموجه العالم للسلوك ."[13]

لقد كرر مؤرخو الحضارة الغربيين من فيكو وهيجل إلى شبنجلر فينري فرانكفورت ... مقولة ابن خلدون عن اطوار الحضارة ومراحلها حيث تظهر وتنضج وتموي ولا تعود البتة

ثم يأتي بعد ذلك نظرة ارنولد توينبي فقد قام في دراسته بتقسيم الحضارات البشرية الى إحدى وعشرين حضارة لم يبق منها حسب تقسيمه سوى خمس وهي المسيحية الغربية والارثودكسية والاسلامية والهندية وحضارة الشرق الأقصى.[14]

وهكذا فان تيارا واسعا من المفكرين الفرنسيين يقر بما للدين من تأثير بالغ في بناء المجتمعات من ذلك ما أقره بنيتشه على نصفين حيث قال:" والدين والحياة الدينية الخصبة القوية الحية من مميزات الحضارة نجدها في كل مظاهرها من فن و نظم اجتماعية وسياسية لأن حياة الفرد الداخلية ثرية بينما المدنية تكاد تخلو من الروح الدينية ."[15]

أما في القرن العشرين فان أهم الأصوات التي ارتفعت للإعلان عن إفلاس الحضارة الغربية الحديثة هو صوت رينيه نعينون الذي يرى أن الحركات المضادة للحداثة داخل الحضارة الغربية والتي تتحدث باستمرار عن سلبيات التصور الوضعي للحضارة ستبقى بعيد ة عن العلم الحقيقي طالما ظل أفقها العقلي مرتبطا بالإنسان فقط دون البعد الالهي وبقيت اسرة القوانين الوضعية وان لم تذهب ابعد من ذلك فان الامل في الخلاص ضائع لا محالة ."[16]

وهكذا نجد أن الوضعية بمعناها العام حولت الحضارة الغربية إلى كابوس مرعب للافراد والأمم فمصلا نجد أن مفهوم التقدم منح شرعية في القرن الماضي للمستعمرين بتصفية حضارات الأمم الأخرى والقضاء على ثقافاتهم لقد حاربت المادية الجوانب الروحية بلا هوادة و جعلت من الإنسان حسابات وأرقاما وهاهي المأساة تتكرر اليوم في شكل تطور اقتصادي تسمى بالعولمة أو بالنظام الدولي الجديد وهي شكل أخر من أشكال الصراع المادي بكل مقوماته الجديدة وهي مسألة باتت المجتمعات تتحرر من التعامل معها و حتى في المنقذة منها .

وفي مجتمعنا الإسلامي يكون وجود الفرد قائما على توحيد الخالق الذي هو أساس الرسالة القرآنية وهو يقوم على تشكيل حياة الإنسان فالحضارة الإسلامية ذات منهج قائم على تفاعل العقل مع الوحي فيهما يتكاملان فيها بهدف إسعاد الإنسان ذلك المخلوق الذي كرمه الله تعالى فأن جعله خليفة في الأرض في قوله تعالى : " ولقد كرمنا بني آدم وحملناه في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ". [17] كما ميزه بالعلم والحرية والإدراك وفي خضم هذا الصراع المتواصل بين المادي والروح ازدادت هموم الإنسان المعاصر في تعامله مع الوضع الدولي الجديد في خصوصية الجديدة فقد عمت العولمة مجالات الحياة المختلفة تعانيه والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقيمية أيضا اصطلح على تسميتها بالقيم الكونية فقد أحدثت العولمة انساقا فكرية جديدة بتأسيس علاقة جديدة للإنسان مع الزمان والمكان .[18]

أن القيم التي أفرزتها العولمة تتجاوز الزمان والمكان لان هدفها اخضاع المجتمعات لنموذج حضاري واحد و توحيد النظر إلى الذات والى الأخر وإلى القيم الكونية مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان أنها قيم الغالب الذي أراد للأخر أن يكون مستهلكا ليس إلا وهو ما يتناقض مع دعوة العالم المتقدم للتعددية وقبول الرأي المخالف وحرية الاعتقاد والتعبير لأنها لا تأخذ بالواقع الأخلاقي والاجتماعي للمجتمعات في الإصلاح والتغيير لان منطلقها اقتصادي محض حيث يشير التقرير الذي نشرته الأمانة العامة لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة بتاريخ 27 سبتمبر 1999 ان الشركات متعددة الجنسيات هي التي اصبحت تتحكم في الاقتصاد والعالمي وتفرض قانونها وسياستها سواء تعلق الأمر بالاستثمار أو الإنتاج أو الاستهلاك.[19]

156 ـــ

1- الفيروز ابادي المعجم الوسيط ص 18 .
2- الزبيدي تاج العروس ج3 ص 146
3- احمد محمود صبحي فلسفة الحضارة ص 3
4- عماد الدين خليل التعبير الاسلامي للتاريخ ص 174.
5- محمد الكتاني في العولمة والهوية ص 82.
6- الخضيري العولمة
7- ال عمران : 102
8- الحج : 40
9- مالك بن نبي المسلم في عالم الاقتصاد
10- Encyclopédie universalise corpus vol 5 ed à paris 1989 p 944-
11- Andreé Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie Paris .Pub 1972
12- الموسوعة العربية الفلسفية العربية م 1 ص 445 .
13- Leon Brunschvicg la Maison et la Religion . Librairie Felix Alcan 1939 pp 210-
14-ارنولد توينبي مختصر دراسة التاريخ ج 4 ترجمة فؤاد محمد ص 19
15-عبد الرحمان بدوي نيتشيه الكويت 1975-ص 141
16- RENEGUENON la crise du monde moderne Paris 1975
17-الاسراء: 70.
18-احمد زايد عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية ص 10 عالم الفكر الكويت 2003م
19- عولمة الثقافة وأسئلة الديمقراطية عبد الجليل الأزدي ص 46 المغرب 2003م